مَوْسُوعَةُ

فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ الفِيلِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الفيل

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الفيل

﴿ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سور الفيل باستفهام تقريري وتعجب عن حال الذين لا يعتبرون بما حصل لأصحاب الفيل الذين أرادوا استباحة حرمة مكة المكرمة، وهدم الكعبة، حتى لا يتجه الناس إليها بالحج، فانتقم الله تعالى منهم بالطير الأبابيل التي رمتهم بحجارة من سجيل. فقال الله عَزَّ وجل ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ ألم تر من عظيم قدرة الله تعالى كيف أهلك الله أبرهة ملك الحبشة، ومن معه من جنوده، الذين أرادوا هدم الكعبة. فأهلكهم الله عَزَّ وجل وأبادهم جزاء لهم وعبرة لغيرهم، بما يبين عظمته عَزَّ في علاه، وأنه ينتقم من كل متكبر جبار. ولإفادة الامتنان على أهل مكة بحمايتهم ممن لم يكن لهم القدرة عليه.

وفيه تعظيم لشأن مكة المكرمة ومنزلتها، وفيه رفع لمنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن لفت الانتباه لشأن أصحاب الفيل من خلال توجيه الخطاب إليه عليه الصلاة والسلام، باعتباره المبلغ عن ربه جَلَّ جلاله. وكذلك فيه بيان لعظيم قدرة الله تعالى بما سيأتي من الآيات البينات. وفيه رفع لمنزلة الرسول صلى الله عليه وسلم بأن لفت الانتباه لشأن أصحاب الفيل من خلاله عليه الصلاة والسلام، باعتباره المبلغ عن ربه جَلَّ جلاله. وأصحاب الفيل هو أبرهة ملك الحبشة، الذي أتى إلى مكة من جهة اليمن، لهدم الكعبة، ومعه حيوانات الفيل التي اصطحبها معه.

والخطاب موجه للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكنه بأسلوب شمولي، ليشمل كل أحد من الناس. فقد ورد الخطاب الاستفهامي بقوله جَلَّ جلاله ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ألم يصل إلى علمك أيها الْمُخَاطَب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية العظيمة إلى أن يُفنِى اللهُ تعالى الأرضَ ومن عليها بقيام الساعة.

وقد بدأ البيان بسؤال استفهامي تقريري، يشتد به الانتباه ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ وكذلك رفع مقام السؤال بتوجيهه إلى لنبي صلى الله عليه وسلم ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أيها النبي صلى الله عليه وسلم. فيخاطب عباده في شخص

الرسول صلى الله عليه وسلم، رِفعَة لمقامه عليه الصلاة والسلام، بأنه هو الْمُخَاطَب الذي يُخاطبكم بما أنزله ربكم عليه من الوحي.

ألم يصل إلى علمك الخبر الذي ذاع بين الناس حتى تناقلوه منذ حدوثه، فأصبح خبره كأنك تنظره وتراه. ولذلك ورد البيان بالرؤيا ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التي تفيد نظر البصيرة، وكأنه شاهد ما حدث من كثرة تناقل الناس لأحداثه. ثم أسند النظر بالمزيد من شد الانتباه إلى دلالة ﴿كَيْفَ﴾ التي تستثير الذهن ليتصور عليه الصلاة والسلام وغيره ذلك الحدث، وما يُعَبِّرُ عنه، وما ينكشف به من عظيم قدرته عَزَّ وجل.

ودلالة ﴿كَيْفَ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور ويتأمل ويفكر الْمُخَاطَب فيما أحاط بذلك الحدث من قدرة الله تعالى. مما يدل على نعمة التأمل والملاحظة والاستنتاج والاستنباط من واقع الحال، ومن الأحداث التي تبين قوة الله تعالى وقدرته، وكمال عزته وسلطانه. فإن نظر البصر والبصيرة نعمة عظيمة، ليتفقه به الإنسان في المنافع والمصالح، وفي الخطأ والصواب، وأنه وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

ومن الفوائد الأسلوبية في قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أنها تَلفِت الانتباه، كما أن كلمة ﴿كَيْفَ﴾ زادت من أهمية العمق في التأمل، وتقليب الفكر والرأي والبصيرة. وأن جملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ متعلقة بالْمُخَاطَب، بأن يتأمل ويُمْعِن النظر فيما كان من شأن أصحاب الفيل، وقوة تطاولهم وتماديهم، ودواعي الغرور الذي دعاهم إلى إرادة صد الناس عن بيت الله الحرام. ليتبين أن كل من يصد الناس عن مراد الله تعالى، وعن دينه وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، سيكون الهلاك والدمار له، حتى يخرج الْمُخَاطَب بالنتيجة المقنعة بفساد سلوكهم الذي جعلهم يصدون عن دين الله تعالى، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم، فكما حفظ الله تعالى بيته الحرام فإنه يحفظ رسوله صلى الله عليه وسلم، ويُهلك المعتدين. فإياكم والظلم والجراءة على الحق، وعلى من أُنزل الحق، وعلى الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أُنزِل عليه الحق، ويدعوهم إلى الحق. مما يفيد أنه قد تحقق من تعاقب كلمة ﴿كَيْفَ﴾ بعد ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مقصداً عظيماً، وبياناً بلاغياً عميقاً، بما يدل على عظيم البيان في القرآن الكريم، ودقة مكوناته اللفظية، وهذا من عظمة كلام الله تعالى وإعجازه في كل لفظة فيه.

ثم عَظَّم الله تعالى الهلاك بأن نسب الفعل له عَزَّ وجل ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ فإن الذي فعل بهم ما وصلكم خبره هو ربكم عَزَّ في علاه ﴿فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ وأظهر الله تعالى ربوبيته بأنه ربك الذي فعل بأصحاب الفيل، وهو رب كل أحد من الخلق. كما نعتهم سبحانه وتعالى

بدلالة الفيل ﴿ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ الذي أصبح سمة لهم، باصطحابهم حيوان الفيل، وذلك لقوته وهيبته، والاستعلاء به على غيرهم من الناس.

ثم قال تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴾ ومع تلك القوة إلا أن الله عَزَّ في علاه جعل تدبيرهم هباء لا أثر له. فانطلق البيان بسؤال تقريري. ألم يجعل ربك احتيالهم من الكيد في ضياع، فقد أرادوا الكيد للبيت العتيق وأهله بالقتل والسبي وهدم الكعبة. فأباد الله تعالى بقوته وعزته وسلطانه وتدبيره تلك القوة بالهلاك الواقع عليهم. فأصبح كيدهم ومرادهم في هباء، لم ينالوا إلا العذاب، فأرسل لهم ما لم يكن في حسبانهم، ولا حتى في حسبان أهل مكة. فقال تعالى ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴾ فأرسل الله تعالى لهم جنس الطير الصغير الخفيف ليهلكهم مع ما معهم من الحيوان الضخم الذي هو الفيل. ليشتد التأمل والتفكير، في أن القوة من الله تعالى، يمنحها لمن يريد، فليست مقرونة بما هو في ذهن الأنسان وحسبانه، بل جعل الطير يقتلهم ويقتل الفيل. قال ابن جرير رحمه الله تعالى: أرسل عليهم ربك طيراً متفرقة، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى[١] قال ابن عباس رضي الله عنهما والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضا. وقال الحسن البصري وقتادة: الأبابيل: الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل: شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبابيل: المختلفة، تأتي من ههنا ومن ههنا، أتتهم من كل مكان[٢] فأفادت دلالتها الشمولية من الكثرة، والتتابع والإحاطة بهم، فأتت عليهم من كل جهة.

ومما ذُكر في قصتهم: أن أبرهة أصبح متهيئاً للدخول. فبرك الفيل، فبعثوه فأبى. فضربوه فأبى. فوجهوه إلى اليمن راجعاً فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام، ففعل مثل ذلك. وإلى المشرق، ففعل مثل ذلك. فوجهوه إلى الحرم، فأبى. فأرسل الله تعالى طيراً من البحر[٣] مما يبين عظيم قدرة الله تعالى. وعظيم سلطانه وقهره، ونصره، وحكمته، وأنه يضع القوة حيث يشاء، مما يعلم المؤمن أهمية التوكل على الله تعالى، والاستعانة به، والاستعاذة به مما خلق، ويزداد بذلك إيماناً ويقيناً بأن القوة والنصر من الله تعالى، وأنه جَلَّ جلاله هو القادر على تغيير الموازين بأسهل ما يكون التغير.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٦٢٧/٢٤)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٩/٤)

(٣) ابن الجوزي زاد المسير في علم التفسير (٣١٠/٨)

ثم أخبر تبارك وتعالى عما فعلته تلك الطير بأصحاب الفيل. فقال الله تعالى ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴾ فقد رمت هذا الطير أبرهة ومن معه بحجارة من طين، شديد صلبة. فتقع عليهم بسرعة متتالية، ومتتابعة، حيث يتبع بعضها بعضا ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ فجعلهم القوي العزيز بهذا العذاب كالزرع الذي أكلته الدواب، فتفرق يابساً خاملاً، لا حياة فيه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: كزرع أكلته الدواب، فيبس، وتفرق أجزاؤه، فشبَّه تقطُّع أوصالهم بالعقوبة التي نزلت بهم، وتفرق آراب أبدانهم بها، بتفرق أجزاء الروث الذي حدث عن أكل الزرع[1] مما يدل على قوة العقوبة بهذا الطير الذي لا يقارن بالفيل، وبهذه الحجارة الصغيرة التي يحملها، والتي لها هذا الفعل العظيم الذي مزق أجسامهم أشلاء وقِطعاً، كأنهم بقايا زروع قد عاثت فيها الدواب، وتركتها. ليكون هذا الأمر عظة لكل أحد منذ أن نزلت هذه السورة الكريمة إلى أن تقوم الساعة. وهذا توجيه وموعظة من الله تعالى لكل أحد من العباد إلى أن تقوم الساعة، فقد أراد عَزَّ وجل للناس بهذا الوعظ الهداية، فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن كفر فعاقبة ذلك عليه وحده. فنحمد الله تعالى على نعمة الهداية والبيان العظيم بكتابه الكريم، وبرسالة رسوله الأمين صلى الله عليه وسلم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الفيل. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.

(1) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٤/٦٢٧)